الخلافة الاموية والايقونات

د.جاسم صكبان علي
قسم التاريخ - كلية التربية للبنات – جامعة بغداد

الخلاصة:
ان الدراسة التحليلية للعلاقات الاموية البيزنطية وموقف الاسلام من الايقونات يمكن ان تقودنا الى القول بان هناك صلة وثيقة بين الحركات المضادة للايقونات عند البيزنطيين وبينها في دار الاسلام[١]، أي ان اعلان الخلافة الاموية الحرب ضد الايقونات يعني ان علاقاتها مع البيزنطيين جيدة. وان سكوتها عنهم يعني ان علاقاتها مع البيزنطيين سيئة وتمتاز بالروح العدائية بين الطرفين.

Umayyad Caliphate and Icons

Dr. Jassim Sagban Ali
History department - Education College for women
Baghdad University

Abstract:
The analyzation studies for the Umayyad –Bayzantine relationship and attitude of Islamic towards Icons, make us say that there is a relationship between the movement that was against the Icons in Bayzantine Empire and that was in Dar-al Islam.

The declaration of war by the Umayyad Caliphate against the Icons means that the relationship with Byzantine was good. While when the Caliphate became silent means that the relationship with the Bayzantine was bad and distinguished by aggression between the two sides.

المقدمة:
تسمى الصور الكنسية بالايقونات. والايقونة لفظ يوناني تعني الصورة او الرسم. وفي المصطلحات الدينية تعني الاشارة الى صور القديسيين. والايقونات في عرف الكنيسة نوعان: اولهما العادي والثاني العجائبي.[٢]

ان تقديس الصور والتماثيل في الكنيسة النصرانية هو نتيجة لعدم القدرة على فهم اتحاد اللاهوت بالناسوت (الطبيعة الالهية بالطبيعة البشرية) فهماً صحيحاً. لقد تطور استعمال الصور والتماثيل في الكنائس الى عبادة منظمة في القرن السادس الميلادي واستمر في التطور والنمو حتى القرن الثامن الميلادي[٣] لقد صنع اليعاقبة (اصحاب الطبيعة الواحدة) والنساطرة (اصحاب الطبيعتين) تماثيل للمسيح. وصوّر اليعاقبة السيد المسيح متحداً بمفهومه البشري والالهي بينما أصر النساطرة على بشرية السيد المسيح في هذه الصور[٤].

وقبل الخوض في موقف الخلافة الاموية من الايقونات لابد من الاشارة الى أن الامبراطورية البيزنطية خاضت حرباً ضد الايقونات في أراضيها في العصر الاموي وجزءاً من العصر العباسي، ففي سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م أمر الامبراطور البيزنطي ليو الثالث (٩٩هـ-١٢٩هـ/٧١٧م-٧٤٠م) بازالة وتدمير الايقونات من الكنائس[٥]. وقد استمرت عملية محاربة الايقونات حتى سنة ١٦٤هـ-٧٨٠م. ثم هدأت الحرب. واستعرت مرة أخرى سنة (١٩٨-٢٢٩هـ/٨١٣-٨٤٣م)، حينها تم الاعتراف بالايقونات[٦].

وقد روى الواقدي مايؤكد وجود هذه الصور في الكنائس والاديرة اثناء حركة الفتح الاسلامي، فعلى سبيل المثال وجد الفاتحون العرب في كنيسة ميافارقين (في الجزيرة الفراتية) صورة للسيد المسيح، ومهده وصورة السيدة مريم العذراء[٧].

وقد وصف لنا الشاعر الاموي عمر بن أبي ربيعة الايقونات والناس الذين كانوا يصنعونها وقال انها وضعت الى جانب المذبح[٨]. كما أشار الاخطل الى ان كل الكنائس[٩] والاديرة[١٠] كانت تحوي ايقونات.

لقد كان ليو الثالث معادياً للايقونات. وقد اختلف الباحثون في تعليل اسباب امره بتحطيمها وازالتها من الكنائس والاديرة، فقال بعضهم انه اراد بذلك كسب صداقة العرب المسلمين الذين اعتبروا هذه الايقونات مجرد اصنام. في حين يرى آخرون ان هدفه من وراء ذلك هو امتلاك معدنها الثمين. اضافة الى رغبته في تحرير عامة الناس من سيطرة الكنيسة ورجال الدين الذي أراد اضعافهم[١١] وقيل ان هدفه هو تنقية العقيدة النصرانية من الشوائب[١٢] ويرى اليوسف ان هدفه كسب ولاء سكان آسية الصغرى للاعتماد عليهم في مقاومة حركة الفتوح العربية الاسلامية. وبشكل اكثر فعالية[١٣]. ويرى البعض ان حرب الايقونات ((كانت في اساسها حرب اصلاح سياسي واجتماعي وان لاوون وحلفائه ارادوا ان يحرروا التعليم من سيطرة الاكليرس، رجال الدين، وان العناصر المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين أيدوا هذه الحركة لانهم رأوا فيها اصلاحاً مفيداً))[١٤].

ويرى Lombard ان الحركة المعادية للايقونات في الامبراطورية البيزنطية والخلافة الاسلامية كانت لها دوافعها الاقتصادية حيث واجهت الطرفين أزمة مالية لذا فان ملوكهما تحولوا الى اعداء لهذه الايقونات ليبرروا ازالة الذهب والخزائن من الكنائس والاديرة[١٥]. وقد اعترض M.V.Anastos على هذه الاسباب واقترح بان ليو الثالث اتبع سياسة معادية للايقونات لانها مجرد اصنام وقد الغاها الكتاب المقدس[١٦].

ويتفق ثيوفانس وميخائيل السوري في وجود أثر للاسلام على حرب الايقونات. فالأول يقول ان ليو الثالث كان ذا تفكير اسلامي[١٧]. ويقول ميخائيل السوري بأنه أمر بازالة وتحطيم الايقونات من الكنائس والاديرة والبيوت لانه اراد محاكاة المسلمين[١٨]. ويرى كبون Gibbon بأن سياسة ليو الثالث المعادية للايقونات نابعة من ((تربيته وعلاقته مع اليهود...والعرب))[١٩]. ويرى Sahas بان هناك صلة سببية منطقية بين حركة تحطيم الايقونات عند النصارى والمسلمين[٢٠].

ويعارض Browne فكرة وجود أي شك حول كون أن حركة تحطيم الايقونات في أوربا كانت قد ظهرت بتأثير مطاردة الخليفة الاموي يزيد الثاني (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) لرعاياه النصارى الذين وضعوا هذه الايقونات في الكنائس والاديرة[٢١]. ومن ناحية اخرى فان Anastos ينفي وجود اية صلة منطقية بين حركة تحطيم الايقونات عند النصارى والمسلمين. ويرى ان اصل الحركة المعادية للايقونات في الامبراطورية البيزنطية هو مسألة لها علاقة بالتعليل الالهي لشخص السيد المسيح وعمله باعتبارها مؤشرات لآخر ماتوصل اليه الجدل والمناظرات من آراء حول شخصية السيد المسيح[٢٢] ويستمر في رأيه قائلاً ((ومن ناحية اخرى فانه من الصعب اعتبار الامبراطور البيزنطي الذي كان قد انشغل بحرب بقاء مميتة مع العرب قد يتبنى منهم، وهم اعداؤه، افكاراً لاهوتية، وبشكل خاص موقف الاسلام من نظرية لاهوتية نصرانية))[٢٣].

ولما اضطهد القائلون بالايقونات ((هب يوحنا الدمشقي الذي كان يعيش في دمشق، يشارك ابناء الكنيسة في الدفاع عن الايقونات بخطب ثلاث شرح فيها معتقدات الكنيسة الجامعة ودعم تعاليمها ببراهين قاطعة وبلغة بليغة...))[٢٤].

وقد عد يوحنا الدمشقي هذه الايقونات تراثاً فقهياً شرعياً للنصارى. وقد نجح في اثارة الشعور العام بالاخلاص للايقونات وحفز الشعور بالمعارضة للمرسوم البيزنطي القاضي بتحطيم الايقونات، ودعا الى تجاهله، وبين الاسباب التي دعت النصارى الى احترام الايقونات[٢٥]. وكان رد فعل الامبراطور البيزنطي عنيفاً حيث عقد مجمعاً كنسياً سنة ١١٢هـ/٧٣٠م، واصدر المجمع المذكور عقوبة الحرمان ضد يوحنا الدمشقي[٢٦]. ولما كان يوحنا الدمشقي بعيداً عن متناول الامبراطور البيزنطي حيث يعيش في دمشق، فانه لم يتأثر بهذه العقوبة ورد على اعداء الايقونات بحماسة واندفاع اكثر من السابق.

كانت الخلافة الاموية هي الاخرى ضد الايقونات، فقد أمر عبد الملك بن مروان بازالة الصلبان[٢٧] وأمر يزيد الثاني في سنة ١٠٣هـ/٧٢٣م ((بنزع وتمزيق الصور والايقونات من الجدران والاعمدة من الحجارة ومن الكتب وتحطيم التماثيل والهياكل والبنايات))[٢٨] وكان لهذا الامر صداه في الولايات الاسلامية حيث انتهز بعض الولاة ذلك، فقد أمر والي الجزيرة الفراتية، محمد بن عبد الملك، نصارى الرها بدفع المزيد من الاموال. وقد روى انه قال ((أما ان يدفع نصارى الرها ثلاثة الاف دينار أو يحطم كل الايقونات)) ولما كان اهل الرها حريصين على بقاء هذه الايقونات، ورغم عدم امتلاكهم لهذا المبلغ فانهم اقترضوه من اثناسيوس وهو أحد أهم المفضلين النصارى في بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان وقد اقرضهم اثناسيوس المبلغ المذكور على شرط ان يحتفظ بهذه الايقونات حتى تتم عملية ارجاع المبلغ اليه. وعندما قام اهل الرها بجمع المبلغ وارجاعه الى اثناسيوس، لم يعطهم النسخ الأصلية للايقونات بل اعطاهم ايقونات مزيفة صنعت بمهارة واحتفظ بالاصلية عنده[٢٩] ولم يكتفِ اثناسيوس بذلك بل اشترى كفن السيد المسيح بمبلغ كبير، وهو خمسين الف دينار ووضعه في كنيسة الرها. وكان النصارى يأتون لزيارته ورؤيته والتبرك به في الاحتفالات الدينية ثم امر البطريرك جون بعدم السماح للناس برؤية الكفن لئلا يتعرض للتلف[٣٠].

ان دراسة العلاقات الاموية البيزنطية في فترة اعلان البيزنطيين الحرب على الايقونات تظهر بأن علاقة البيزنطيين الجيدة مع الامويين تدفع الامويين الى اعلان الحرب ضد الايقونات لضمان استمرارية العلاقة الحسنة مع البيزنطيين. وعندما تنقلب هذه العلاقات الى علاقات حرب وعداء بين الطرفين فان الخلافة الاموية تهادن دعاة الايقونات في داخل حدود الدولة العربية الاسلامية، وهناك مجموعة من الادلة تدعم هذه النظرية، فعلى سبيل المثال: في عهد يزيد الثاني واستناداً الى المصادر الأولية الاسلامية والسريانية، فان علاقات الود والسلام قد شاعت بين الخلافة الاموية والبيزنطية، لان يزيد الثاني كان يريد اتباع سياسة عمر بن عبد العزيز الذي حاول اقناع ليو الثالث باعتناق الاسلام، ولأجل ارضاء ليو، عدو الايقونات، فان يزيد الثاني أمر في سنة ١٠٣هـ/٦٢٣م بتحطيم وازالة الايقونات[٣١]. آملاً منه في اقناع ليو بترك النصرانية واعتناق الاسلام[٣٢]. وفي سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م حقق المسلمون نصراً على البيزنطيين[٣٣]. فبدأ ليو الثالث يشك في أن دعاة الايقونات في بلاده هم من أنصار المسلمين ومساندهم لذا فانه أصدر مرسومه الملكي ضد تقديس الايقونات[٣٤] ولم تتخذ الخلافة الاموية في هذه الفترة اي اجراء مضاد للايقونات ودعاتها ضمن حدودها، واستمر الامر على هذا الحال في العهود الاخرى. وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) تدهورت العلاقات الاموية البيزنطية وساءت الاحوال بينهما بسبب الحروب المستمرة[٣٥]. وقد سمحت الخلافة الاموية لدعاة الايقونات بترميمها واعادتها الى الكنائس[٣٦].

ومن الجدير بالذكر انه بعد عدة انتصارات حربية يحققها البيزنطيون ضد العرب في العصر الاموي، فان اضطهاداً جديداً ضد دعاة الايقونات من مواطني البيزنطيين يمارس بنشاط وجدية، فعلى سبيل المثال، عندما نجح ليو في حربه ضد المسلمين سنة (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) فانه بدأ باضطهاد دعاة الايقونات[٣٧].

وعندما حقق البيزنطيون نجاحاً في حربهم ضد العرب المسلمين في سنة (١٢٦-١٢٨هـ/٧٤٤-٧٤٧م) فان الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (١٢٣هـ/١٥٩هـ) أمر باضطهاد دعاة الايقونات ولم تقم الخلافة الاموية بأي عمل مضاد لدعاة الايقونات في دار الاسلام خلال السنوات (٩٩هـ/١٠١هـ و ١٢٦هـ/١٢٨هـ).

الهوامش:

(١) Sahas, Op., Cit., p.10.

(٢) رستم، اسد، كنيسة مدينة الله انطاكية، ج٢، (بيروت، ١٩٥٥)، ص١٩.

(٣) Browne, The Eclipse of Christianity in Asia, Combridge 1933, p.74.

(٤) Ibid. p.75.

(٥) Theophanes, Chronographia, (Bonn, 1839), p.623.

(٦) Gibbon, E, The Decline and fall of the Roman Empire, (London, 1923), p.521.
رستم، اسد، المصدر السابق، ج٢، ص٧٩.

(٧) فتوح الشام، تحقيق عمر ابو النصر، ج٢، (بيروت، ١٩٦٦)، ص١٠٩.

(٨) المبرد، الكامل في الأدب، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج٢، (القاهرة، ١٩٥٦)، ص٢٤١، البغدادي، خزانة الادب، ج١، (القاهرة، ١٩٢٩)، ص٤١٤.

(٩) البغدادي، المصدر نفسه، ص٤١٢، وقد رجعت الى ديوان الاخطل فلم اجد ذكراً لها.

(١٠) شرح ديوان الاخطل، (بيروت، ١٨٩١)، ص١٢.

(١١) G. Evary, the Byzantine Patriarchates, (London, 1962), pp.87-88, G. Finlay History of the Byzantine Empire, (London, Edinbrgh, 1852), p.22.
رستم، أسد، حرب في الكنائس، (بيروت، ١٩٥٨)، ص٢٢.

(١٢) اليوسف، عبد القادر، الامبراطورية البيزنطية، (بيروت، ١٩٦٦)، ص١٠٦.

(١٣) نفس المصدر، ص١٠٦.

(١٤) رستم، أسد، المصدر السابق، ص٢٢.

(١٥) The Golden age of Islam, (Amsterdam, 1975), p.105.

(١٦) "Iconoclasm and Imperial rule 717-842" ed in the Cambridge Medieval History, 1966, vol.4, pp.61-66.

(١٧) Op., Cit., p.623.

(١٨) Op., Cit., p.457.

(١٩) Op., Cit., p.251, Cf.-G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, (Oxford, 1956), pp.142-143, Vasiliev, History of the Byzantine Empire, (Madlson), 1928, p.312.

(٢٠) John of Damascus on Islam, the Heresy of Ishmaelites, (Leiden, 1972), p.10.

(٢١) Op., Cit., p.74.

(٢٢) Op., Cit., p.68.

(٢٣) Op., Cit., p.67.

(٢٤) رستم، اسد، حرب في الكنائس، ص٢٦.

(٢٥) Op., Cit., pp.281-282. Idem, Exposition of the Orthodox Faith vol.4, p.88 Idem, on Holy Images, (London, 1898).

(٢٦) Micheal the Syrian chronique de Michel le Syrian, ed, J.B.Chabet, (Paris, 1899), vol.2, p.473.

(٢٧) Op., Cit., vol.2. p.475., Bar-Hebraeus, the Chronagraphy, trans. W. Budge, (London, 1932), p.109.

(٢٨) Dionysius tell-Mahre, Chronique de Denys de tell-Mahre ed, and trans J.B. Chabot, (Paris, 1895), p.17. Theophanes, Op., Cit., p.617, Micheal the Syrian Op., Cit., vol.2. p.457.
الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، (بيروت، ١٩٠٨)، ص٦١.
(٢٩) Micheal, Op., Cit., vol.2. p.448-9.
(٣٠) Micheal the Grand, Chronique de Michel le Grand, (Venice, 1868), pp.247-8.
(٣١) Dionysius tell-Mahre, op.cit., p.17, Theophanes, Op., Cit., p.618.
الكندي، المصدر السابق، ص٧١.
(٣٢) Theophanes, p.614.
(٣٣) الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج٧، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص٤٣.
(٣٤) الرحماني، مختصر تواريخ القرون المتوسطة، الموصل، ١٨٧٧، ص٩٣.
(٣٥) الطبري، المصدر السابق، ج٧، ص٤٠-١٦٠.
Micheal the Syrian, Op., Cit., vol.2. p.463, Bar-Hebraeus, Op., Cit., p.110
(٣٦) Anastos, Op., Cit., p.66.
(٣٧) الرحماني، المصدر السابق، ص٩٣.
Every, Op., Cit., p.87.
رستم، اسد، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم مع العرب، (ج٢، بيروت، ١٩٥٥)، ص٢٧٤.

المصادر والمراجع

١- المصادر العربية:

(١) الاخطل- شرح ديوان الاخطل، (بيروت، ١٨٩١).
(٢) البغدادي، عبد القادر/ خزانة الادب، (القاهرة، ١٩٢٩).
(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج٧، (القاهرة، ١٩٦٦).
(٤) الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف، كتاب الولاة وكتاب القضاة، (بيروت، ١٩٠٨).
(٥) المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد، الكامل في الأدب، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج٢، (القاهرة، ١٩٥٦).
(٦) الواقدي، ابو عبد الله بن عمر، فتوح الشام، تحقيق محمد ابو النصر، بيروت، ١٩٦٦.

٢- المراجع العربية:

(١) الرحماني، لويس، مختصر تواريخ القرون المتوسطة، (الموصل، ١٨٧٧).
(٢) رستم، اسد، أ- كنيسة مدينة الله انطاكية، ج٢، (بيروت، ١٩٥٥).
ب- حرب في الكنائس، (بيروت، ١٩٥٨).
جـ- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وصلاتهم مع العرب، (بيروت، ١٩٥٥).
(٣) اليوسف، عبد القادر، الامبراطورية البيزنطية، (بيروت، ١٩٦٦).

٣- المصادر الأجنبية:

(1) Bar-Hebraeus, the Chronography, trans. W. Budge, (London, 1932).

(2) Dionysius tell-Mahre, Chronique de tell-Mahre ed,and trans. J.B. Chabot, (Paris, 1895).
(3) John of Damascus:
A- on Islam, the Heresy of Ishimaelites, Leidin, 1972.
B-Exposition of the orthodoxfaith vol.9. on holy images, London, 1898.
(4) Micheal the Syrian chronique de Michal le Syrien, ed, J.B.Chabet, (Paris, 1899).
(5) Micheal the Grand, Chronique de Michel le Grand, (Venice, 1868).
(6) Theophanes, Chronographia, (Bonn, 1839).

٤- المراجع الأجنبية:

(1) M.V. Anastos, Iconclasm and Imperial rule ed in the Cambridge medival History, 1966.
(2) Brown, The Eclipse of Christianity in Asia, (Combridge 1933).
(3) G. Evary, the Byzantine Datriarchates, London, 1962.
(4) Gibb. E. The Decline and fall of the Romman Empire, (London, 1923).
(5) G. Finlay History of the Byzantine Empire, London, (Edinbrgh, 1852).
(6) Lombard, The Golden age of Islam, (Amasterdam, 1975).
(7) G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, (Oxford, 1956).
(8) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, (Madison, 1928).